اليهود فقط، وحدهم، يصرون على أن ديانتهم هي قوميتهم، مما جعلهم «نشازا» في هذا العالم. ونحن، في هذه المنطقة، ندفع ثمن هذا النشاز.

وعلينا أن نتذكر أيضا، ان الاسلام كالنصرانية، لم يقف حائلا دون نشوء القوميات في أواسط القرن الماضي وبداية هذا القرن. فقد شهدت الخلافة العثمانية الاسلامية التمرد القومي العربي عليها وتحالف المسلمين والمسيحيين العرب ضدها. ولقد وصل هذا التمرد حد اعلان الثورة العربية بقيادة أمير مكة وملك الحجاز الشريف حسين الذي تحالف مع الانكليز ضدها.

في تلك الفترة من التاريخ المشترك الواحد، كنا في هذه المنطقة، كغيرنا في كل بلاد العالم، نبحث عن الرابطة الاقوى والارسخ لمواجهة تحديات تلك الفترة ولتلبية مطالب الناس انئذ. فجاءت الرابطة القومية لتأخذ موقعها بديلا عن كل ما سبقها من روابط قبلية ومذهبية أثبتت عجزها عن مقاومة الظلم والفساد.

وتحت هذه الراية القومية تبدلت تحالفات وتغيرت صداقات، وباتت النظرة الشعبية العارمة ترى في تركيا دولة غازية مستبدة، بغض النظر عن هوية دين الدولة الرسمي ورغم انتماء الاكثرية العربية لهذا الدين. ومن المفارقات الداعمة لهذا التحليل، أن دولا مسيحية حاربت الى جانب تركيا ضد أخرى مسيحية كانت تمد العون لمسلمين ضد الدولة الاسلامية الكبرى. وهكذا تغيرت الخرائط وتبدلت، وأصبحت «القومية» لا المذهب الديني هي اللواء الذي يجتمع حوله الناس في هذه المنطقة.

ومن يعد قراءة التاريخ لهذه الفترة بالذات لا يستطيع الا ان يزهو فخراً بهذه الوحدة القومية التي تجلت في استشهاد هذا العدد الوفير من خيرة أبناء العرب – مسلمين ومسيحيين – حتى اننا لا نجد مدينة هامة في هذه المنطقة تخلو من ساحة لتمجيد ذكرى هؤلاء الشهداء.

وعلينا أن نعترف – بكل التواضع – أن الموقف القومي العربي من الدولة التركية المسلمة كان أصعب وأشق على المسلم العربي منه على المسيحي العربي. لانه – اذا جازت المقارنة – كموقف يهودي عربي في اسرائيل يقف اليوم مع الثورة الفلسطينية ضد حكام تل أبيب. لنتصور، للحظة، ما يعنيه قيام ثلاثة أرباع مليون يهودي عربي ضد دولة اسرائيل معلنين أن رابطتهم القومية بالفلسطينيين العرب أقوى وأرسخ وأبقى من الرابطة الدينية مع يهود أوروبا!!

واذا فرضت علينا الأمانة تسجيل هذه الملاحظة باعتبارها تكريساً لانتصار الوعي القومي على الرواسب المذهبية، فلا يجوز أن يفوتنا أن نسجل بنفس الأمانة الدور القومي الرائع الذي قام به المسيحيون في بعثهم للفكرة القومية وحفاظهم على التراث القومي ولغته وادابه.

تاريخ هذه الفترة يجب أن تعاد قراءته، ويجب أن تعمم فصوله على أجيالنا الراهنة